الباب السابع والعشرون

الثورة والتجديد

الفصل الأول

الخطر الأبيض

النزاع بين آسية وأوربا – البرتغاليون – الأسبان – الهولنديون – الإنجليز – تجارة الأفيون – حروب الأفيون – فتنة بنج تاى – منج – حرب اليابان – محاولة تمزيق الصين – « الباب المفتوح » – الإمبراطورة الوالدة – إصلاحات كوانج شو – عزله – الملاكون – الغرامة الحربية

اتخذت هذه القوى شكل الانقلاب الصناعى . فقد نشطت أوربا وتجدد شبابها على أثر كشف القوى الآلية واستخدامها فى صنع الآلات ومضاعفة الإنتاج . وما لبثت أوربا أن وجدت نفسها قادرة على إنتاج سلع أرخص من التى تنتجها أية أمة أو قارة ، ظلت تعتمد على الصناعات والحرف اليدوية ، وعجزت أوربا عن تصريف منتجات آلاتها بين سكانها لأنها كانت تؤدى لعمالها أجوراً أقل بعض الشىء من القيمة الكاملة لجهودهم ، واضطرت من أجل ذلك إلى البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد من منتجاتها على حاجتها ، فكان لا بد لها أن تستعمر ودفعها الاستعمار إلى الحروب . وأصبح القرن التاسع عشر ، بحكم الظروف القائمة فيه وبدافع الاختراعات الكثيرة التى تعاقبت فى خلاله ، لا ينقطع فيه النزاع بين ما كان فى آسية من حضارة قديمة ناضجة منهوكة ، وما قام فى أوربا الصناعية من حضارة فتية ، قوية منهومة .

وكان الانقلاب التجارى الذى حدث فى أيام كولمب هو الذى أفسح الطريق ومهد السبيل للانقلاب الصناعى ، فقد كشف الرحالة عن أراضى قديمة ، وفتحوا ثغوراً جديدة ، ونقلوا إلى الثقافات القديمة منتجات الغرب وأفكاره . وكان البرتغاليون المغامرون فى أوائل القرن السادس عشر قد استولوا على جزائر ملقا ، وكانوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ، ووصلوا بسفائنهم الجميلة ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون (١٥١٧) .

وكان أولئك القادمون خلقاً متوحشين لا يخضعون لقانون ، ويعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، ولم يكونوا يفترقون إلا قليلا عن القراصنة ... إن كان بين هؤلاء وبينهم فرق على الإطلاق[1] . . ، وعاملهم الصينيون معاملة القراصنة فألقوا بممثليهم فى السجون ، ورفضوا ما عرضوه عليهم من تجارة حرة ، وكثيراً ما طهّر الصينيون الغضاب الحانقون الأحياء التى استقر فيها البرتغاليون بذبح ساكنيها . ولكن البرتغاليين أعانوا الصينيين على قتال غيرهم من القراصنة ، فكان جزاؤهم على هذه المعونة أن منحتهم بيكين حق الإقامة فى مكاو وحكمها كأنها ملك لهم ، فشادوا فى تلك المدينة مصانع كبيرة لصنع الأفيون ، وأجازت لهم أن يستخدموا فى هذه المصانع الرجال والنساء والأطفال . ودرت عليهم هذه الصناعة أرباحاً عظيمة يكفى لمعرفة مقدارها أن نقول إن مصنعاً واحداً كان يعود على الحكومة البرتغالية التى أنشئت فى هذا الإقليم بربح مقداره ١٫٥٦٠٫٠٠٠ دولار فى كل عام[2] .

ثم جاء الأسبان وفتحوا جزائر الفلبين فى عام ١٥٧١ واستقروا فى جزيرة فرموزا الصينية ؛ وأعقبهم الهولنديون ، وفى عام ١٦٣٧ أقبلت خمس سفن إنجليزية وصعدت فى النهر إلى كانتون ، وأسكتت بمدافعها القوية المدافع التى قاومتها ، وأنزلت فى المدينة بضائعها[3] . وعلم البرتغاليون الصينيين شراء الدخان وشربه ، ثم بدأ فى مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين . وجرمت

الحكومة الصينية على الشعب تعاطى الأفيون ، ولكن عادة تعاطيه انتشرت انتشار النار فى الهشيم حتى بلغ ما استورد منه إلى الصين فى عام ١٧٩٥ أربعة آلاف صندوق(*) . وحرمت الحكومة استيراده فى تلك السنة وكررت هذا التحريم فى عام ١٨٠٠ ولجأت إلى المستوردين وإلى الأهلين على السواء تبين لهم ما لهذا المخدر القوى من أثر فى إضعاف حيوية الأمة . ولكن تجارة الأفيون لم تنقطع رغم هذا التحريم ، ولم تكن رغبة الصينيين فى شرائه أقل من رغبة الأوربيين فى بيعه ، ولم يجد الموظفون حرجاً فى تناول الرشاوى التى كانت تقدم إليهم ليتغاضوا عن أوامر التحريم بل كانوا يتقبلونها شاكرين .

وأصدرت حكومة بيكين فى عام ١٨٣٨ أمراً بالتشديد فى تنفيذ قرار تحريم استيراد الأفيون ، وجاء موظف قوى يدعى لن تزه — شو فأمر من فى كانتون من المستوردين الأجانب أن يسلموا ما فى مخازنهم منه . فلما أبوا حاصر الأحياء الأجنبية وأرغمهم على أن يسلموه عشرين ألف صندوق من هذا المخدر ، ثم أقام فى كانتون شبه حفلة أفيونية أتلف فيها هذه الكمية كلها . وعلى أثر هذا انسحب البريطانيون إلى هنج كنج وبدأت « حرب الأفيون » الأولى . وقال الإنجليز إن الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها أنهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قحة وغطرسة فى استقبالها ممثليهم أو برفضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات فى صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة مرتشية أقامتها القوانين والعادات الصينية تعطل بها تجارة منظمة مشروعة . وأطلقوا المدافع على المدن الصينية التى كان فى وسعهم أن يصلوا إليها من الشاطئ ، وأرغموا الصين على طلب الصلح باستيلائهم على مصب القناة الكبيرة عند شنكيانج . ولم تذكر معاهدة نانكنج شيئاً عن الأفيون ، وتخلت الصين بمقتضاها عن هنج كنج إلى

(*) يمكن تقدير ثمن هذه الكمية إذا ذكرنا أن قطعة من الأفيون يتسع لها جيب صديرية الرجل يبلغ ثمنها ثلاثين دولاراً .

البريطانيين ، وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفتحت للتجارة الأجنبية خمسة « ثغور معاهدات » (كانتون ، وأموى ، وفوتشو ، وتنجپو ، وشنغهاى) ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون ، واشترطت أن يحاكم الرعايا البريطانيون فى الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد ، أمام محاكم بريطانية(٥) . وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تطبق هذه « الامتيازات الأجنبية » على تجارها ورعاياها المقيمين فى الصين وأجيبت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم . ذلك أن الحكومة خذلت أشد الخذلان فى نزاعها مع الأوربيين ، فقد سخرت منهم أولا ، ثم تحدتهم بعدئذ ، ثم خضعت لهم آخر الأمر ، ولم تفد الألفاظ الظريفة المعسولة فى إخفاء الحقائق عن الوطنيين المتعلمين أو الأجانب المتربصين .

وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة فى كل مكان تسربت إليه أخبار هزيمتها ، وما لبثت القوى التى كانت من قبل صامتة خاضعة — والتى كانت تظل صامتة خاضعة لولا هذه الهزيمة — ما لبثت هذه القوى أن ثارت علناً على حكومة پيكين . من ذلك أن وطنيا متحمساً يدعى هونج سيو — شوان ، بعد أن تعلم طرفاً من البروتستنتية وتراءت له بعض الخيالات الوهمية ، اعتقد فى عام ١٨٤٣ أن الله قد اختاره ليطهر الصين من عبادة الأوثان ويحولها إلى المسيحية . وبعد أن بدأ هونج عمله بهذه الدعوة المتواضعة تزعم آخر الأمر حركة ترمى إلى القضاء على أسرة المنشو الحاكمة وإيجاد أسرة جديدة هى أسرة التاى بنج أى السلم العظيم ، وحارب أتباعه حرب الأبطال البواسل يحدوهم التعصب الدينى من جهة والرغبة فى إصلاح الصين على غرار الدول الأوربية من جهة أخرى ، وحطموا الأصنام ، وقتلوا المخالفين من الصينيين ، وأتلفوا كثيراً من دور الكتب والمجامع العلمية القديمة ومصانع الخزف القائمة فى چنج ده — چن ، واستولوا على نانكنج وظلت فى

أيديهم اثنتى عشرة سنة (١٨٥٣ — ٦٥) ، وزحفوا على پيكين وزعيمهم من خلفهم فى مأمن من الأعداء منغمس فى ترفه وملذاته ؛ ولـكنهم هزموا وتشتتوا لعجز قادتهم ، وارتدوا إلى أحضان إخوانهم مئات الملايين الصينيين[٦] .

وبينما كانت فتنة تاى — پنج الصماء تمزق الصين وتقطع أوصالها اضطرت الحـكومة إلى مواجهة أوربا مرة أخرى فى « حرب الأفيون » الثانية (١٨٥٦ — ١٨٦٠) . وكان سببها أن بريطانيا العظمى ، تعاونها فرنسا والولايات المتحدة معاونة تقوى تارة وتضف تارة أخرى ، طابت إلى الصين أن تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة (وكانت هذه التجارة قد ظلت قائمة بين الحربين رغم ما صدر من الأوامر بتحريمها) ، وأن تسمح لها بالدخول فى مدن جديدة غير التى كانت قد سمح لها بدخولها ، وأن يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم فى بلاط پيكين . فلما رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون ، وأرسلوا حاكمها مقيداً بالأغلال إلى الهند ، واقتحموا حصون تينتسين وزحفوا على العاصمة ، ودمروا القصر الصيفى انتقاماً لما نال مبعوثى الحلفاء من تعذيب وقتل على يد الصينيين فى پيكين . وأملى الغزاة الظافرون على المهزومين معاهدة فتحت لهم بمقتضى شروطها ثغور جديدة كما فتح نهر چنج — دزه للتجارة الأجنبية ، وحددت طريقة لاستقبال الوزراء الأمريكيين والأوربيين فى الصين على قدم المساواة مع الوزراء الصينيين ، ووضعت الضمانات القوية لسلامة المبشرين والتجار الأجانب والسماح لهم بممارسة نشاطهم فى جميع أجزاء الصين ، وأخرجت البعثات التبشيرية من اختصاص المحاكم والموظفين . وزادت فى امتيازات أبناء الأمم الغربية وتحررهم من الخضوع لقوانين البلاد ، وأعطت بريطانيا قطعة من الأرض مقابلة لهنج كنج ؛ وجعلت استيراد الأفيون عملا مشروعاً ، وفرضت على الصين غرامة حربية لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين وتدريبها على أساليبهم .

وشجعت الأمم الأوربية انتصاراتُها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد قطعة ، فاستولت الروسيا على الأراضى التى تقع فى شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسورى (١٨٦٠) ، وانتقم الفرنسيون لموت أحد المبشرين بالاستيلاء على الهند الصينية (١٨٨٥) ، وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها وأثارت عليها حرباً فجائية (١٨٩٤) ، وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا وحررت كوريا من الصين لتستولى عليها هى فيما بعد (١٩١٠) ، وفرضت على الصين غرامة حربية تبلغ ١٧ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار لما سببته لها من متاعب جمة(٧) . ومنعت الروسيا اليابان أن تستولى على شبه جزيرة لياتنج على أن تؤدى الصين إلى اليابان غرامة إضافية ، فلما انقضت ثلاث سنين من ذلك الوقت استولت الروسيا نفسها على شبه الجزيرة وأقامت فيها عدة حصون منيعة . وكان مقتل اثنين من المبشرين على يد الصينيين سبباً فى استيلاء ألمانيا على شبه جزيرة شانتنج (١٨٩٨) ، ثم قُسمت الدولة الصينية التى كانت تحكمها من قبل حكومة قوية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها هذه الدولة الأوربية أو تلك بامتيازات فى التعدين أو التجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول . وخشيت اليابان أن تقسم الصين تقسيما حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت شدة حاجتها إلى الصين فى مستقبل الأيام ، فانضمت إلى أمريكا وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » ، أى بحق الدول جميعاً فى الاتجار مع الصين على قدم المساواة رغم اعترافها بما للدول فى الصين من « مناطق نفوذ » ، على أن تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء . وأرادت الولايات المتحدة أن تضع نفسها فى مركز يمكنها من أن تساوم على هذه المسائل ، فوضعت يدها على جزائر الفلبين (١٨٩٨) وأعلنت بعملها هذا عزمها على أن تشترك فى النزاع القائم من أجل الاتجار مع الصين .

وفى هذه الأثناء كان فصل آخر من الرواية يمثل وراء جدران القصر الإمبراطورى فى پيكين . ذلك أنه لما دخل الحلفاء عاصمة الصين ظافرين فى

نهاية « حرب الأفيون » الثانية (١٨٦٠) فر الإمبراطور الشاب شيان فنج إلى جيهول حيث توفى بعد عام واحد من ذلك الوقت وترك العرش لابنه البالغ من العمر خمس سنين ، فما كان من زوجة الإمبراطور الثانية أم ذلك الغلام إلا أن استولت على مقاليد الحكم وتسمت باسم تزه شى — وعرفها العالم باسم الإمبراطورة الوالدة — وحكمت الصين حكما طيبا صارما مجرداً من الرحمة دام جيلا كاملا . وكانت هذه السيدة فى شبابها قد حكمت البلاد بقوة جمالها ؛ أما الآن فقد حكمتها بقوة إرادتها . ولما مات ولدها عند بلوغه سن الرشد (١٨٧٥) لم تعبأ الإمبراطورة بالسوابق ولم تأبه بالمعارضين وأجلست على العرش غلاماً قاصراً — جوانج تشو — واستبقت مقاليد الحكم فى يدها . وحافظت هذه الإمبراطورة الجريئة على السلام فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً مستعينة على ذلك برجال من دهاقين السياسة أمثال لى هونج — چانج ، وأرغمت الدول الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب . فلما أن انقضت اليابان على الصين فجاءة ، وأسرعت الدول الأوربية إلى تقطيع أوصال البلاد تقطيعاً جديداً بعد انتصار اليابانيين عليها ، قامت فى عاصمة الصين حركة قوية تطالب بأن تحذو حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية — أى أن تجيش جيشاً قوياً ، وأن تنشئ المصانع وتمهد الطرق ، وأن تحاول الحصول على الثروة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبهما الظافرة . وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ما لديهم من قوة ، ولكن جوانج شو انضم إليها سراً ، وكان قد أذن له أن يتربع على العرش وأن يكون إمبراطوراً بحق . فلم تشعر الإمبراطورة ومستشاروها إلا وقد أصدر جوانج إلى الشعب الصينى (فى عام ١٨٩٨) من غير أن يستشير « بوذا العجوز » (وهو الاسم الذى كانت حاشية الإمبراطورة تطلقه عليها) عدة مراسيم عجيبة لو أن البلاد قبلتها وعملت بها لسارت سيراً حثيثاً سلميا فى طريق الأخذ بأساليب الغرب ونظمه ، ولحال أخذها بها دون سقوط الأسرة المالكة وتدهور الأمة فى هاوية الفوضى والشقاء .

فقد أمر الإمبراطور الشاب بإقامة نظام جديد للتعليم، وإنشاء مدارس لا يقتصر التعليم فيها على كتب كنفوشيوس وأتباعه القدماء، بل تدرس فيها أيضاً الثقافة الغربية فى العلوم والآداب والفنون الصناعية؛ وشجع على إنشاء الطرق وإصلاح الجيش والبحرية، وكان يهدف بهذا إلى الاستعداد لمواجهة «الأزمة» المقبلة على حد قوله هو «لأننا محوطون من كل ناحية بجيران أقوياء يريدون بختلهم أن يظفروا بنا، ويحاولون بتألبهم علينا أن يغلبونا على أمرنا»[٨]. وهال الإمبراطورة الوالدة أن يصدر الإمبراطور هذه المراسيم التى رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغبته، فسجنت جوانج شو فى أحد القصور الإمبراطورية، ونقضت مراسيمه، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم فى الصين.

وبدأ فى ذلك الوقت رد فعل عنيف ومعارضة قوية لجميع الأفكار الغربية اتخذتهما الإمبراطورة الداهية عوناً لها على الوصول إلى أغراضها. وكان بعض العصاة قد أقاموا فى البلاد جماعة تعرف باسم أى هو — جوان؛ أى قبضات التوافق الصالحة. ويطلق عليهم المؤرخون اسم «الملاكمين» (البكسر). وكانت هذه الجماعة تهدف فى الأصل إلى خلع الإمبراطورة والأسرة المالكة. ولكن الإمبراطورة أفلحت فى إقناع زعمائها بأن يوجهوا هذه الحركة وقوتها لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوها لمقاومتها هى. وقبل الملاكمون أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين، وجرفهم تيار الوطنية العارمة فشرعوا يذبحون المسيحيين بلا تفريق بين الطيب منهم والخبيث فى كثير من أنحاء الصين (١٩٠٠). فما كان من الجيوش المتحالفة إلا أن زحفت مرة أخرى على بيكين، وكان زحفها فى هذه المرة لحماية مواطنيها الذين استولى عليهم الرعب فاختبئوا فى أركان دور السفارات الأجنبية. وفرّت الإمبراطورة وحاشيتها إلى شيانغو، وانقضّت جيوش إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة على المدينة، وأعملت فيها السلب والنهب،

وقتلت كثيراً من الصينيين انتقاماً منهم لمواطنيها ، وخربت كثيراً من الممتلكات القيّمة أو نهبتها(٥) . وفرض الحلفاء على عدوهم المهول المغلوب غرامة حربية مقدارها ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٣٠ دولار يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح . على أن جزءاً كبيراً من هذه الغرامة قد رفعته فيما بعد الولايات المتحدة ؛ وبريطانيا العظمى ، والروسيا ، واليابان ، عن الصين . وكانت هذه الدول تشترط عليها عادة أن تنفق الأموال التى نزلت عنها على تعليم الطلبة الصينيين فى جامعات الدول التى كانت هذه الأموال من حقها . وكان هذا منها عملا كريماً كان له من الأثر فى تحطيم الصين القديمة أقوى مما كان لأى عمل آخر بمفرده فى الصراع التاريخى المرير بين الشرق والغرب .

(٥) ويقول الكپتن درنكلى فى ذلك . « مما يقشعر منه بدن كل شخص أبيض أن يعلم أن أربعين من النساء المبشرات وخمسة وعشرين من الأطفال ذبحهم الملاكمون ، ولكن خمسمائة وستاً وثلاثين من نساء الطبقات العليا فى الصين قد انتحروا فى تونجشاو وحدها مفضلين هذا الانتحار على الحياة بعد ما لاقوا من عار ومذلة ، مع أن الصينيين لم يبدوا أية مقاومة فى هذه المدينة ولم يقع فيها قتال ما » .